الفصل الثامن

موانع ثقافية في الصراع الإسرائيلي الفلسطيني

اليعاي آلون

الصراع الإسرائيلي الفلسطيني مثله مثل الصراع الإسرائيلي العربي ـ له وجه ثقافي بارز.

يدرس هذا الفصل إلى أي مدى يوجد الاختلاف الثقافي بين إسرائيل والفلسطينيين مانعًا في إدارة المفاوضات وتحقيق اتفاق بينهما، وهل يمكن التغلب على هذا المانع؟ وكيف؟ يركز الفصل بصفة خاصة على سمات الثقافة الإسلامية التي تتحدث العربية، والتي يمكن أن تشكل مانعًا في إدارة المفاوضات وتحقيق اتفاق مع إسرائيل، واقتراح سبل التعامل مع هذه الموانع. سنعرض أولًا مفهوم «الثقافة»، وبعد ذلك نوضح الموانع الثقافية على اختلافها، وفي النهاية نركز على الطرق التي يجب أن نتعامل بها مع هذه الموانع.

الثقافة

إن من يهتم بالثقافة يخاطر بالتعميم من ناحية وبالمفارقة التاريخية من ناحية أخرى؛ لذلك نركز فيما يلي بصفة خاصة على أقوال الباحثين وعلى المصادر العربية والإسلامية، ونعالج الأبعاد المختلفة للموضوع من وجهة نظر معيارية، أكثر منها وجهة نظر نظرية إمبريقية. إذا وضعنا في الاعتبار الأخطاء الشائعة بشأن الثقافة ـ

obeikandl.com

مثل تلك التي ترجع لكل فرد ثقافة واحدة وفريدة، أو تلك التي تنص على أن الثقافة لا تتغير وهي واحدة لكل أعضائها (Avruch, 1998: 1) وإذا وضعنا في الاعتبار دور المكون النفسي/ الشخصي في الصراعات والمفاوضات ـ فإنه يبدو لي أن الثقافة لها دور حاسم في الصراعات وتسويتها. ويكون هذا سليمًا بصفة خاصة في ضوء حقيقة أن المضمون والسلوك في الإعلام متغير، وأن الثقافات المختلفة تعلق أهمية مختلفة على هذا التغير. لكن بينما نجد أن الحاجة إلى تفسير دقيق لمضمون الرسائل يكون مقبولاً من الجميع ـ لا يفهمون جميعًا الحاجة المشابهة لتفسير السلوك تفسيرًا سليمًا؛ لأنه مرتبط بالثقافات. أحاول في هذا الفصل لفت الانتباه إلى هذه النقطة بالنسبة للصراع الإسرائيلي العربي وبخاصة الصراع الإسرائيلي الفلسطيني.

من بين التصنيفات المختلفة لتعريف الثقافة (Williams, 2006: 32) والرؤى المختلفة للثقافة مثل رؤية الخواص (Trait Approac) (Morris & Fu, 2001: 326) والرؤية البنيوية)[٧٩].

ورؤية تحليل الحقائق (Elkhouly, 1996؛ El-Sayed ـ Factor analysis) وغيرها، أفضل الرؤية الاجتماعية، التي تدرس فروق الثقافة من خلال دراسة البنى الاجتماعية أو علاقات ودراسة مواقف الأفراد في المجتمع لماهية التعامل المناسب مع هذه البنى (Morris, Podolny, & Ariel,1998) تبدو لي هذه الرؤية مناسبة جدًا لمعالجة المسائل التي طرحتها أعلاه.

تشير التعريفات المختارة إلى أن مفهوم «ثقافة» هو مصفوفة لأغلب الرؤى والسلوكيات التي يقوم بها ابن الثقافة المعنية، بما فيها الرؤى والسلوكيات المتعلقة

(٧٩) على سبيل المثال، تحليل آثار الاستعارة: يستخدم الأمريكيون استعارات رياضية، لذلك فإنها تنافسية، بينما يفضل اليابانيون مفاهيم الأسرة؛ لأنها مفاهيم تعاونية (Morris & Fu. 2001: 324).

بالصراعات. الثقافة، بصفتها مصفوفة، هي كل ترتبط أجزاؤه بصورة تبادلية وتؤثر كل على الأخرى بصورة تجعل من الصعب فصل جزء واحد فقط ومعالجته منفردًا بعيدًا عن العناصر الأخرى. على سبيل المثال يصعب فهم علاقة الثقافة التي تعيش الصراع دون التعرف على منظومات القانون والتعليم المتبعة فيها.

كل مكون من مكونات هذا العرض له علاقات تاريخية واجتماعية، وقواعد سلوك معينة، ومعايير خفية لتقييم الأوضاع والأشخاص، ورؤية طبيعية واجتماعية للواقع، وقبل كل شيء ـ لغة ورسائل، وبخاصة كتلك التي لا تفسير لها (Faure ,1995 : 40) وهذه تنقل في الثقافة من جيل إلى جيل من خلال تعليم شكلي، وبصورة أكبر من خلال تعليم غير شكلي، يتاح لأبناء الثقافة المعنية، إلا إذا درسوها عمقًا، مثل موقف الثقافة المعرضة لتحمل المخاطر، (Hofstede 1980).

الفروق بين الثقافة الإسرائيلية والثقافة العربية، لا تتبع بالضرورة من تعريف مختلف للثقافة. بالنسبة لهم يوجد أيضًا مفكرون عرب محدثون، وثقافة هي في المجمل العام أفكار، ومعلومات، ومفاهيم، وقيم، ورموز، ومشاعر وأحاسيس، تسيطر على حياة المجتمع في علاقته بالطبيعة والمادة، وكذلك في العلاقات المتبادلة بين أعضائه من ناحية وأفراد المجتمعات الأخرى من ناحية أخرى، على سبيل المثال (ÝAbbÙd & ÝAbd al-ÝÀl, 1990: 201, Quoting SarÎÁn, 1972: 48- 9). تغوص الفروق في التفصيلات الثقافية.

سمات الموانع الثقافية

للضرورة أفترض في هذا الفصل أن طرفي الصراع، اللذين لهما ثقافات مختلفة، لهما مصلحة في حله. وأن أعرف مصطلح «مانع ثقافي» بأنه عائق أو تعويق للتقدم في عملية تسوية الصراع، يرجع إلى عدم الفهم أو عدم معرفة ثقافة الآخر المحدث، أو عدم وجود استعداد للاعتداد بها. أكتفي في هذا المقال بالإشارة إلى عدة فروق

ثقافية جوهرية يمكن أن تعد أرضًا خصبة لعدم الفهم، دون أن نتحدث عنها تفصيلًا كل على حدة.

موانع الهوية الذاتية

توجد مشكلة الهوية في أساس ونتائج الصراعات من أنواع مختلفة. في كثير من الحالات تقف الصراعات الوطنية أيضًا في طريق الحلول، خاصة حينما يبحث الصقور عن هويتهم. ويرجع الأثر الرئيسي لفروق الهوية إلى موقف الطرفين الأساسي تجاه أنفسهما، وتجاه الآخر في الصراع، وتجاه الصراع ذاته - وهذا قبل أن تبدأ عملية تسوية الخلاف - وهو يؤثر أيضًا على الاستعداد لتسوية هذا الخلاف.

يسبق هذا الموقف في الأساس مواقف سابقة ومواقف نمطية. هذا الوضع يسود في الشرق الأوسط (Huntington, 1996: 20) . يفرق التقسيم الإسلامي للإنسانية بين مؤمنين وكفار، ويميز داخل جماعة الكفار التوحيديين اليهود والمسيحيين عن عبدة الأوثان، وتنطبق على أعضاء كل مجموعة من هذه المجموعات قواعد سلوك مختلفة. من الناحية الجغرافية القانونية ينقسم العالم إلى منطقة الإسلام ومنطقة الحرب، وما يميز بينهما هو شيوع الشريعة في المكان المعني. في العصر الحديث، ومع زيادة عدد المسلمين في أوربا، عرض تعريف جديد للمنطقة الإسلامية، وهو - حرية المسلم في تنفيذ وصايا دينه.

إحدى الخواص الهامة للمجموع الإسلامي (الأمة) هي كونها أفضل الجماعات الإنسانية (القرآن 100 : 3) حيث إن الرسالة الإلهية التي يؤمن بها ليست في حاجة إلى تحسين ولا يمكن أن تعدل. لكن المفكرون الإسلاميون مختلفون بالنسبة للاختيار: هل هو اختيار مطلق، أم إنه مرتبط بتقوى المؤمن؟ (انظر على سبيل المثال تفسير ابن كثير في هذه الآية).

إضافة إلى ذلك، يعتبر الإسلام الدين الأصلي للإنسان، ويرجع تزايد الأديان إلى تعليم مضلل ومآل البشر إليه في النهاية. هذه الجماعة هي جماعة دياكرونية وليست متزامنة فقط: أفرادها ملزمون بآبائهم ونسلهم، حيث إن الاعتبارات التاريخية تلعب دورًا هامًا في اتخاذ القرارات في الحاضر (انظر فيما بعد، مناقشة الزمن). يتجلى التزام أفراد هذه الجماعة في السلوك المتوقع منهم تجاه أبناء دينهم وتجاه الآخرين. على سبيل المثال، مثل الشريعة اليهودية، تنطبق قواعد تجارة خاصة بين المسلمين (ÍamDdullah, 1956 :240-1). هناك سمات أخرى تتفاخر بها الجماعة الإسلامية وهي: الإيمان، الأخلاق، العلم، الإنسانية، الأسرية، الإيمان بالتطور والارتقاء الدائم، الفعل، الانفتاح على المجتمعات والثقافات الأخرى والمشاركة الوجدانية (ÝAbbÙd & ÝAbd al-ÝÀl, 1990: 461).

هدف وغاية الجماعة الإسلامية الأسمى هو جعل كل الناس مسلمين. تعرف في الإسلام رؤيتان لتحقيق هذا الهدف: الأولى ـ بالقوة (حكم محمد بالسيف) والثانية تزعم أنه لا فرض في الأمور الدينية (لا إكراه في الدين). وبمفهوم ما تمثل هذه المواقف رؤية مطلقة ونسبية، بالتوازي، تتخذان من خلال جماعات أيديولوجية مختلفة (مثل حماس، في مقابل رؤية بعض المفكرين من جامعة الأزهر) لكن يمكن أيضًا أن تعكس ميولًا شخصية مختلفة.

التصور الذاتي الثاني، الذي نفصله تمامًا عن الأول ـ الإسلامي[٨٠] هو العربي، الذي من سماته الهامة الحضارة المشتركة واللغة المشتركة (انظر فيما بعد) والعزم على خلق قومية عربية (Ghali, 1977: 222) يقتبس بالطبع عن النبي محمد: «أنا أحب العرب لثلاثة أسباب: لأنني عربي، ولأن هذه هي لغة القرآن، ولأن هذه هي

(٨٠) Nehme, 2003, 144: The premise here is that religion is the manner in which Arabs express their need for ultimate order and existential meaning

لغة من يدخلون الجنة»[٨١] (Khalid 1977: 127)، إضافة إلى ذلك، الديالكتيكات المختلفة وازدواجية اللغة التي تستخدم للتمييز الطبقي، تدخل موضوعات الفصل في الهوية العربية الواحدة وتوجد فروق محلية في التعامل مع تسوية الصراع والمفاوضات. في الماضي تفاخر العرب بأنهم «قادة الأمم» (Isfahani, 1332: 1, 10, 19) وثقافتهم هي قمة الحضارة السامية. ولقد أشار باحث عربي إلى السمات التي تميز العربي، كما يراها أبناء الثقافة العربية: الكرم، طيبة القلب، الإخلاص للوطن، الشجاعة، البساطة، الاجتماعية، الوعي، وحب المعرفة (MustakāwĐ, 2004: 224) لكن أيضًا لا توجد وحدة آراء في التصور الذاتي: بنظرة تفصيلية أكثر، المصريون يعتبرون سماتهم كما يلي: الطيبة الكرم، الإخلاص، الإنسانية، التدين، الحب المتبادل؛ القومية، البساطة، الوعي، الانتماء العرقي والعاطفة. وفي نظر عرب آخرين، خصال المصريين هي: الأدب، الطيبة، الكرم، حب المعرفة وقدرات اجتماعية (43. KhalĐl, 2004) . يعتبر الفسطينيون في نظر عرب آخرين شجعانًا، قوميين، طيبين، محبين للسلام، محبين للعلم، صبورين، عاطفيين ومجتهدين (KhalĐl, 2004: 35) والمصريون يعتبرون الفلسطينيين خونه ومحبين للمال (KhalĐl, 2004: 47) بينما هم في نظر كل العرب يعتبرون شجعان، كرماء، واعون، طيبون، قوميون ومتحملون (KhalĐl, 2004: 48).

تشيع في العالم الإسلامي رؤيتان أساسيتان عن الهوية: الأولى تؤكد الهوية القومية العربية وتدعو إلى التآلف حولها، والأخرى تؤكد الهوية الإسلامية، التي بدأت في السنوات الأخيرة تزداد قوة على حساب الأولى. وبحكم توجهها الديني،

(٨١) Ibn SulÔÁn, MuÎammad al-QÁriÞ. JamÝ al-WasÁÞil fĐ SharÎ al-ShamÁÞil DÁr al-AqÒÁ. BÁb kaifa . ʿ3 . Khalid, 127,5

_kÁna KalÁm RasÙl AllÁh, p. 10. (http: / /www.islamweb.net /newlibrary /display_book.php?idfrom=232&idto=235&bk no=117&ID=36)

يمكن أن تعرض هذه الرؤية مواقف أكثر أيديولوجية عن الأولى، وبهذا يصعب وجود تسوية في المفاوضات.

المانع الأول الذي يرتبط بذلك هو الرؤية الذاتية التي تسمو على الآخرين (وهي نظرة تتسم بها أيضًا دوائر يهودية معينة). هذه الرؤية الذاتية يمكن أن تخلق منذ البداية جوًا يعكر المفاوضات المتساوية، وبهذا فإن الجانب الذي يتبنى هذه الرؤية، يعتبر مصلحته مصلحة عليا فوق كل الموضوعات المطروحة في جدول أعمال أي مفاوضات. عمليًا يوجد هذا الجانب في الموقف الأيديولوجي الذي لا يمكنه قبول تسويات كشيء مبدئي، وتعكس الفجوات الثقافية العميقة بصفة خاصة، التي يمكن أن تعرض أي معيار للثقة بين الجانبين للخطر. **ثانيًا**، اعتبار أن الذات تملك كل الخصال الحميدة، تضع الآخر في الوضع العكسي خاصة في حالات الصراع. يمكن أن يبرر المنظور الفوقي للمجال القيمي مواقف وأفعالًا لا تساهم في إدارة مفاوضات متوازنة. **ثالثًا**، اعتبار الذات تسبق الآخر في الزمن وتملك ثقافة قديمة خاصة بها، يمكن أن يشير إلى مطالب ـ بالصدارة في العلاقات، وهي مطالب لا ترجع إلى المفاوضات ذاتها. **رابعًا**، يمكن أن يكون الإحساس بالتفوق الثقافي متداخلًا مع الدونية «الحديثة» التي يمكن أن توجه النقاش الموضوعي، وفي النهاية: تتطلب هذه الرؤية سلوكًا مختلفًا تجاه الأغراب بسبب كونهم أغرابًا.

الآخر

في كثير من الأحيان تكون العلاقة المطلوبة مع الآخر هي عدم الثقة في نواياه. يعبر عن هذه الرؤية بادعاء (سبق سماعه من قبل) أن أي اعتراف للغريب بالخصال الطيبة للمسلم أو بعظمته ـ مثل السادات أو نجيب محفوظ ـ ليس سوى «أفيون صهيوني» يهدف إلى مهاجمة الإسلام (Faraj, 1992: 71). يعد هذا الموقف سمة لرؤية يرجعها بعض الباحثين للعرب، ووفقًا لها فإن مواقف وأفعال

الأغـراب هـي دائمًـا جـزء مـن مـؤامـرة تهدف إلـى زرع بـذور الشقاق بين العرب: (Pipes, 1992: 45, Quoting W. R. Brown, 1980, The Last Crusade: 689).

يوجد باحث مصري اسمه المسيري، محرر دائرة معارف عن اليهود، اليهودية والصهيونية[٨٢]، يهاجم بشدة النظرة التآمرية العربية ويرفضها جملة وتفصيلًا. من بين المبررات التي يسوقها الزعم بأن الاعتقاد ببروتوكولات حكماء صهيون يعطي لليهود قوة شيطانية، ويدخل الخوف في قلوب العرب ويضعفهم، ويضيف: الأمر الذي يخدم المشروع اليهودي (, MaÒÐrÐ 2003). وأيضًا إذا اختفت نظرية المؤامرة، لا تزال توجد فجوة الثقة: ويمكن الاعتقاد بأن نقطة الانطلاق العربية للثقة هي انعدام الثقة وبناؤها بخطوات بطيئة ومدروسة. هذا بينما نجد نقطة الانطلاق الغربية (وليس الإسرائيلية بالضرورة) هي الثقة في الآخر؛ وهكذا على سبيل المثال في المحادثات بين السفير السوري وزميله الإسرائيلي في واشنطن، يوليو 1994 حينما طلبت إسرائيل مد فترة تنفيذ الاتفاق لكي تختبره، بينما طلب السوريون العمل مرة واحدة (رابينوفيتس 192 : 1998). هذه الفروق تضع عائقين أمام المفاوضات. **الأول:** غياب الثقة في الأغراب يضع عائقًا عاليًا أمام احتمالات التوصل إلى أي اتفاق. **ثانيًا:** توجد خطورة في أن يقوم الطرف الثاني، الذي له رؤية مغايرة لرؤية العربي، بالثقة المسبقة أن يثبت أن هذه الثقة ليست في محلها، وهذا يفسر البطء في إجراءات المفاوضات من الطرف الثاني باعتبارها تكتيكًا بحتًا أو ييأس من محاولاته، وبغياب رد فعل إيجابي سريع. ونتيجة هذه الموانع هي الحاجة إلى تخطيط على المدى البعيد تبنى فيه الثقة بين الأطراف من الأساس. ينظر الإسلام والعرب إلى اليهود كما يعرضهم القرآن (MustakÁw 189: 2004) فهم يخرقون العهود، خونة، جشعون، جبناء، يكرهون المسلمين والإسلام، عدوانيون، ساعون إلى الحرب، ناشرو فوضى بين المسلمين وزارعو فساد في العالم، متعصبون للحياة، كفار، يتشككون في اللّه،

(٨٢) MasÐrÐ, ÝAbd al-WahhÁb al-, (1999). MusÙÝat al-YahÙd wal-YahÙdÐyah wal-ÑahyÙnyah

مداهنون، قتلة أنبياء، متوحشون، كذابون، متبجحون، ذاتيون، محتقرون، سحرة، يسيطرون على ممتلكات الآخرين في ظروف باطلة، منحرفون، حمقى، مجرمون ومنافقون (MustakÁwĐ, 2004: 215). هذه الآراء السابقة تبدو وكأنها موانع ثقيلة حتمية أمام أي مفاوضات. واعتبار اليهودي إنسانًا غير أهل للثقة، وخائنًا ومنتهكًا للعهود، له آثار بعيدة المدى. ذلك لأن الشريعة تعلق أهمية بالغة على تنفيذ العهود، مثل (ShÁfi Đ1403 / 1983, Al-Umm, III, 106). حينما يكون للمحاور موقف أيديولوجي يرجع لمحدثه خصال الخيانة وعدم تنفيذ المعاهدات، فإن هذا الموقف يملي عليه موقفه، ليس فقط فيما يتعلق بمضامين المفاوضات وإنما في جوهرها نفسه ـ أو لا تجرى مفاوضات مع من لا ينفذ التعهدات، أو تدار معه مفاوضات انطلاقًا من الشك الدائم في أنه سيفي بالتزاماته وربما أيضًا تبني موقفًا يبرر الشك في أن محاورهم لا يعتزم تنفيذ ما التزم به في حديثه. من ناحية أخرى، حينما يكون الموضوع متعلقًا بمفاوضين مواقفهم براجماتية/سياسية، يكون لهذه الإملاءات الأيديولوجية ثقل أدنى بكثير، إذا كان لها ثقل من الأساس. ويبدو أن هذا يمكن أن يفسر اتفاقات السلام بين إسرائيل ومصر والأردن. وعلى أية حال، فإن اليهود لا يعدون قومية وإنما دين فقط (انظر، على سبيل المثال الميثاق الفلسطيني 1964 ـ بند 20) الهوية لا تبرر المطالبة بأرض أو تقرير مصير. وتوصف مواقف الصهيونية الأساسية بأنها «هراء» قائم على خليط من الدين، والعنصرية والاستعمار وعلى الزعم الأجوف بشأن الوعد الإلهي لليهود (ÍÁmidĐ, 1998: 47) الرؤية التي تستبعد تقرير المصير لدى المحاور هي مانع كبير في إدارة المفاوضات؛ لأنها تلغي الهوية التي اختارها، وبالتالي أيضًا مشروعية المفاوضات معه واللجوء إلى هذه المفاوضات في حد ذاته. ويبدو الإسرائيلي في صورة غير مشجعة، بصفته يهوديًا قبل أي شيء (MustakÁwĐ, 2004: 189). في نظر المصريين يوجد لدى الإسرائيليين خصال سلبية في العديد من المجالات: في المجال الاجتماعي هم خونة ولا ينفذون العهود،

جشعون يسرقون حقوق الآخر، مخادعون، شكاكون في الآخر وليس لديهم أي اهتمام به إلا العمل على استغلاله. وفي المجال النفسي جبناء، متكبرون، مفعمون بالكراهية ولا إحساس لديهم. وفي مجال الصراع يكرهون العرب والإسلام والمسيحية، ويريدون دائمًا أن تحميهم الأطراف القوية، ويثيرون الفتن بين الأفراد والشعوب. وفي المجال القيمي لا توجد لديهم أي أخلاق، وفي المجال الديني يشكون في وجود الله (MistakÁwÐ, 2004: 187). حتى أن سياسيًا وديبلوماسيًا مثل إسماعيل فهمي يصف أسلوب المفاوضات الإسرائيلي بأنه أسلوب صعب كطابع الإسرائيليين، ويريد أن يجني أرباحًا سياسية في أي فرصة (Fahmi, 1983: 72). ويضر المانع الناجم عن مثل هذه المواقف، بإمكانية التقدم للمفاوضات. المانع الأكبر هو الذي يعكس الرؤية الدينية المتطرفة للصراع، مثل ذاك الذي عبر عنه نصر الله (النهار 6 مايو 1989) الذي يرى أن إسرائيل عدو الله ومحاربتها وسيلة للتقرب إليه. ويترتب على هذه الرؤية نتيجة أن أي سلوك آخر تجاه إسرائيل ـ وقبل كل شيء المفاوضات ـ هي بمثابة كفر. وحينما لا يعتبر الطرف الثاني في الصراع جانبًا، وإنما ماهية تعيق الخلاص، فإنه لا مجال بالمرة لمفاوضات، ذلك لأن الماهية لن تتغير بعدها. إضافة إلى ذلك، هناك من يلفتون الانتباه إلى التطورات في الرأي العام العربي في السنوات الأخيرة: على الرغم من أن الشعارات، والتصورات ورؤية الذات والآخر ظلت كما هي، إلا أن هناك زعماء وغيرهم كثيرون لديهم استعداد لقبول إسرائيل كحقيقة في المنطقة (NuÒairÁt, 381: 1997).

الكولونيالية

يعد Hofstede أحد أبرز الباحثين الأكثر تأثيرًا في بحوث الفروق الثقافية، وهو يشير إلى خمسة مقاييس لدراسة الفروق بين الثقافات:

- الجمعية مقابل الفردية.

- فجوات القوة.
- الرجولة والأنوثة.
- نظرة عدم اليقين.
- النظرة على المدى البعيد أو القصير.

سأركز على البعد الأول بين هذه الأبعاد وعلى الآثار المانعة للفروق في الرؤى تجاه الفردية والجمعية. هناك من يعرفون الفردية بأن الإنسان يتحرك من خلال تفضيلاته واحتياجاته فقط. وفي المقابل، نجد أن الجمعيين هم من يعتبرون أنفسهم في الأساس أعضاء في مجموع، ويتحركون من خلال معايير ومهام يمليها المجموع[٨٣].

في كثير من الأحيان تفضل الثقافة الجمعية تكتيكات تجنب الخلافات بسبب القيمة العليا للتنسيق والتقاليد، بينما نجد أن الثقافة الفردية تميل إلى تكتيك التنافس (Morris, Podolny, & Ariel, 1998: 729). يمكن أن تشكل فروق التكتيك مانعًا ثقافيًا كبيرًا بسبب التفسير السلبي الذي يمكن أن يعطى للثقافات المختلفة والسلوك من جانب الطرف الثاني في المفاوضات.

إضافة إلى ذلك، بينما نجد أن العلنية هامة جدًا في الثقافات الجمعية، فإنها تحتل مكانًا أقل أهمية في الثقافات الفردية ـ وهو ما يتجلى بوضوح بصفة خاصة حينما نكون أمام ثقافات دينية.

(٨٣) من ناحية أخرى هناك من يقولون بأنه لا وجود للجمعية البحتة، لأن المؤسسات هي تعبير عن الفرد (Rosen, 2002 68)ومن ناحية أخرى هناك من يقولون إن الفردية هي تعبير عن المجتمع ومؤسساته، مثل (Brown. 1980: 7).

obeikandl.com

من بين ما يظهر فيه الخط الجمعي في الثقافة الإسلامية[٨٤] درجة التوحيد، التي تعد أكبر من الكاثوليكية والبروتستانتية (Yuchtman-Yaar & Alkalay June, 2007) أساسها مبدأ الانصياع له -مثل عكسه - يجب أن يكون علنيًا.

هذه العلنية هي أحد المصادر الهامة المعروفة في ثقافة الاحترام وتقدير الذات. وعدم أخذ المحاور لهذا العنصر في الاعتبار يمكن أن يضع الشريك العربي في أوضاع غير مناسبة في بيئته المحيطة ويجعله يرد بصورة سلبية.

في أجزاء كبيرة من الثقافة الجمعية الإسلامية التي تتحدث العربية، يعتبر الفرد في نظر نفسه وفي نظر الآخرين ممثلًا للجماعة (Halpern, 1977: 64) حتى حينما يكون الأمر متعلقًا بصراع نشب على خلفية شخصية، فإن الجماعات التي يعد الصقور منها ينساقون إليه (Abu-Nimr, 1996: 45) وليس الأمر كذلك حينما يكون متعلقًا بصراع بدايته جمعية. وهذه الخطوة تنطبق أيضًا في الاتجاه المعاكس: أحيانًا يجد الفرد نفسه عرضة للهجوم من جانب جماعته (Kresel, 1982: 44) أو من ممثلها، وانظر قضية الشخصيات الدانماركية.

وفقًا للرؤية التقليدية، المصلحة العليا للجماعة في المجتمع الإسلامي متحدث العربية، هي استمرار لوجوده الموحد، وبالتالي تكون الغاية الأولى حال اندلاع الصراع هي إعادة الوضع إلى ما كان عليه، وتعمل بالمبادرة وبصورة نشطة لتحقيق هذا الهدف (Lederach, 1991: 184) انطلاقًا من منظور العدل المعدل. في الثقافة العربية، في مقابل ذلك، يعتبر الصراع الداخلي المدني نتيجة لنشاطات الأفراد (Faure, 1995 :49) يتدخل المجتمع فيه فقط بمبادرة أحد الأشخاص، وهدف تسويته هي إنهاؤه دون إدخال أطراف لا علاقة لهم به بصورة مباشرة. وهذا الفارق له آثار على

(٨٤) وفقًا لبحث أجري في الولايات المتحدة، تمت فيه مقارنة درجة الجمعية لدى الأمريكيين والعرب، ثبت أن العرب جمعيون أكثر، ومنهم المصريون أكثر فردية. (Buda & El-Sayed Elkhouly, 1998)

أوضاع الصراع بين أعضاء الجماعات، أو بين الجماعات المنتمية لهاتين الثقافتين. هذه الآثار تنطبق على معاني «العدل» و«الحل العادل» (بما فيها درجة قبول الفرد المسئولية، بل وحتى الاتهام، حيث إن صالح الجماعة موضوع على كفة الميزان، كما في حالات القتل لشرف الأسرة)، وعلى مشروعية تدخل الأفراد الذين يعرفون أنفسهم أعضاء في الجماعة، وعلى قبول العقاب الجماعي وفقًا للعادة البدوية، وعلى هوية ووضع الجانب (ج) في الصراع، وغير ذلك.

ومعروف أنه كما أن المجتمعات الغربية لها أيضًا خطوط جمعية، يوجد أيضًا للمجتمع الإسلامي متحدث العربية خطوط فردية بارزة يمكن أن تضر بالمصلحة العامة. على سبيل المثال، تتهم «الشخصية العربية» بتضخيم الذات على حساب الجماعة (YasÐn, 1973: 165) وبهذا فإن ولاء العربي هو ولاء شخصي، وأولوية المصلحة الشخصية على المصلحة العامة تغوص في أساس المشكلة السياسية العربية (Salem 1970: 404).

تتجلى «الفردية الموسعة» في هذا السياق في مطلب الاستقلال السياسي للدول العربية المختلفة، فبينما نجد أنها جميعًا، من ناحية، ترفع شعار التضامن العربي وتدعو إلى العمل السياسي العربي الموحد، نجد أن إحدى الدول الأعضاء في الجامعة العربية تختلف مع عنصر أجنبي (الصراع الإسرائيلي العربي، وحرب إيران ـ العراق، والصراع الليبي ـ الأمريكي في قضية لوكربي وغيره)، فإن العمل الديبلوماسي يخضع بالفعل لكل واحدة منها على انفراد. هذه الاستقلالية موجودة سواء في المجال الرسمي (قرارات الجامعة العربية يجب أن تتخذ بالإجماع) أو في المجال العملي، حيث وقعت مصر والأردن على اتفاق سلام منفرد مع إسرائيل.

لكن إذا كان العمل أيضًا في المجال السياسي والديبلوماسي على الأرض يتعارض بوعي مع المثالية الثقافية، فإن من يقود هذه الخطوات لا بد أن يبررها بمفاهيم المثالية أمام مواطني دولته. هكذا اضطر السادات إلى تبرير خطوات

سلامه مع إسرائيل سواء في المجال الديني (من خلال الفتاوى الدينية من رجال الدين) أو في المجال القومي (من خلال الإشارة إلى التضحيات التي قدمتها مصر، وحدها تقريبًا، من أجل الفلسطينيين، والمخاطر الاقتصادية التي تتربص بها).

تتبع الفروق التالية من هذه الاختلافات الثقافية: الظلم المحتمل في تقدير الأطراف لهيكلية مصالح المحاور؛ ويمكن أن تؤدي هذه الفروق من منظور أهمية قيم معينة ـ وبخاصة العدل وتعريفه ـ إلى أخطاء في التقييم ـ قبل كل شيء في شأن وجود قاسم مشترك للمناقشات أو عدم وجوده؛ ويمكن أن تؤدي الفروق على المستوى الشكلي والتخصيصي إلى عدم الثقة والشك في نوايا الطرف الثاني في الالتزام شكليًا بالاتفاقات التي تم التوصل إليها والالتزام بتنفيذها.

اللغة

تعتبر اللغة أهم مانع ثقافي، ليس فقط بحكم كونها أداة التعبير الرئيسية لكل الثقافات والأداة الأساسية لإدارة المفاوضات، وإنما بسبب العلاقة الوطيدة السائدة بينها وبين مفهوم «الهوية». هذا التزاوج يعود على الأقل إلى أيام النبي محمد، الذي حذر وفقًا للموروثات من الزعماء المزيفين، الذين يعدون خطرًا لأنهم يتحدثون اللغة (BukhÁr ÑaÎÎ Vol. 4, Book 56, No, 803) ومن أجل توضيح مكانة اللغة كمانع ثقافي في المفاوضات، وبخاصة في الصراع الإسرائيلي العربي سأعرض عدة سمات متفردة للغة العربية.

على عكس اللغات الأخرى التي يعد دورها نقل رسائل بصورة جيدة جدًا (Lucy 106: 1992) نجد أن إحدى المهام الرئيسية للغة العربية هي الحفاظ على العلاقات بين المتحدثين بها وتطويرهم.

يصف باحث عربي لغته بأنها ودودة، وحميمية (تمنح حرارة وثقة بالنفس) (Hatim, 1997: 169). ويمكن أن يؤدي التعريف المختلف لدور اللغة في إجراءات تسوية الخلافات إلى نسب نوايا للآخر، ترجع إلى تفسير استخدام اللغة وفقًا لتعريفات المفسر. على سبيل المثال، متحدث العربية يمكن أن يفسر الصيغة المختصرة والحديث في الموضوع بأنها أمر فظ وعدم رغبة في تطوير العلاقات بين الطرفين.

على الرغم من أنه في السنوات الأخيرة حدث انخفاض في مهابة البلاغة ـ ربما بسبب انكماش العالم واتساع الاتصالات مع الغرب في مجالات الفعل ـ إلا أنه ما زال هناك من يعتبرون اللغة العربية لغة نموذجية جدًا لمجموعة اللغات عالية الاتصال فهي تتسم بالحوار غير المباشر، الشعوري، ومتعدد المعاني (Berque & Charna, 1967) تركز على الحدس، وعلى الاستخدام الواحد للحكايات في مقابل الرؤية الأكثر تجريدًا للغة منخفضة الاتصال[٨٥]، التي تعشق الرموز وتعليق أهمية بالغة على الأسلوب، والبلاغة، والاقتباس، واللعب بالألفاظ، والتشبيهات والاستعارات (al-'Aqqād, 1968: 40) وكذلك يوجد بها ميل إلى عدم الريادة والاتصال غير اللفظي، وإلى الشعر والألوان والابتعاد الدقيق (Salem, 1970: 406) والجرس، والوزن والقافية، والجمال بصورة عامة ـ الأمر الذي يجعل من هذه اللغة «سحر حلال». (Khalid, 1977: 130,13).

وأيضًا فإن حساسية اللغة العربية واتجاه المسايرة فيها ـ الذي يتعارض مع منطلق «الدوغري» الإسرائيلي ـ يعكس كونها لغة عالية الاتصال. في اللغة التي يتوفر فيها هذا الطابع، يكون التوجه نحو الآخر والعلاقة الظاهرة تجاهه علاقة تصالحية تهدف إلى الحفاظ على التناغم في المجتمع (Griefat et al., 1989: 121) ومنع الصراعات. تتحقق

(٨٥) Sharabi, Neopatriarchy, 89: «If in a monological culture validation rests (as it does in neopatriarchal society) on the spoken word («so and so said that so and so that so and so said»), then nonverbal proof (empirical evidence) is rendered secondary or even irrelevant… So the anecdote becomes the document and the evidence: to narrate is to reveal and to make intelligible»

هذه الأهداف من خلال السيطرة الذاتية اللفظية، واستخدام التعبيرات غير المباشرة، والمبالغ فيها أحيانًا (Zahrana1 995; Khalid, 1977: 130, 23; KhÙrÐ, 1993: 64) وخلق جو من الثقة.

الإنسان الذي لغته الأم هي لغة منخفضة الاتصال، أو أنه معتاد على منطلق «الدوغري»، يجري مفاوضات مع شخص لغته الأم عالية الاتصال، أو أنه اعتاد على منطلق المسايرة، يمكن أن تصطدم المفاوضات معه بصعوبات. الأول يضيع المعاني بلغة عالية الاتصال ويبدو مثل محدثه مداهنًا، مبالغًا بل وحتى كاذب، بينما الأخير يبدو في البداية وحشًا غير مهذب وعديم المشاعر الإنسانية. في الحالين يكون نجاح المفاوضات محل شك.

بالتالي يمكن لهذه السمات أن تشكل مانعًا في المفاوضات، ذلك لأنه إضافة إلى المضمون المبحوث هناك أهمية بالغة بصفة خاصة لأسلوب المناقشات، التي تكون بطبيعة الحال أطول من لغة متحدثي اللغة منخفضة الاتصال. مثل هذا الأسلوب يمكن أن يعتبر في نظر متحدثي اللغات منخفضة الاتصال كمشوش عمدي، ومضيعة للوقت من أجل تحقيق مكاسب تكتيكية وحذلقة بدلًا من التوصل إلى تفاهمات دقيقة.

لكن المانع الجوهري جدًا في المفاوضات بين متحدثي لغة عالية الاتصال ومتحدثي لغة منخفضة الاتصال قد يرجع إلى أن المسئولية في الأولى لفهم الرسالة ملقاة على المستمع، وليس على المتحدث، لأن هذا هو الوضع في الأخيرة (Hall, 1982: 18; Zaharana, 1995) وهذا الفهم المختلف، لمسئولية نقل الرسالة وفهمها، يمكن أن يشكل مانعًا حاسمًا لأنه في نهاية المفاوضات الشفاهية يمكن أن تسقط الرسالة بين المقاعد ويلقي كل طرف بالتهمة على الجانب الآخر. إضافة إلى ذلك: سمات وحدة اللغة العربية يمكن أن تشكك المتحدث في أنه لا يقول الحقيقة.

اللغة العربية (Sachdev & Bourhis, 1990: 228) لها وضع قومي رئيسي، ووفقًا لتعريف أحد علماء اللغة المحدثين: «اللغة هي صورة الوجود القومي كما تنعكس في الأفكار والمعاني وصدق (الأمة) التي تواجه نفسها» (RÁfiÝÐ, 1990) اللغة العربية هي إحدى التعبيرات الأساسية عن الانتماء القومي العربي[٨٦] (Declaration, Arab League Riyadh Summit, 2007)، إضافة إلى ذلك هي ذات قيمة دينية قوية جدًا، تمنح لها التفوق الذي تتفاخر به.

بسبب ثقلها النسبي الخاص، الذي يختلف إلى حد ما عن ثقل لغات أخرى، يمكن للغة العربية أن تشكل مانعًا ثقافيًا، وبخاصة بسبب دورها في تعزيز الهوية المستقلة ورؤية الغريب كأدنى (انظر أعلاه): فهي لغة القرآن، اللغة التي لا يمكن أن تحتوي على أخطاء، (Isfahani 1332, I, 122 15) وهي لغة الملائكة ويتحدث بها المؤمنون في الجنة دون أن يجب عليهم تعلمها (El-Shamy, 1995: 279; al-JÁÎiÛ, RasÁÞil, 1: 33 and K al-ÍayawÁn, 4: 82)، وهي اللغة الأولى التي تلقها الإنسان الأول (al-290: 3 JÁÎiÛ, BayÁn,) ومع بالغ الدهشة فإن العلاقة بالعبرية وفقًا لبحث أجري في الجامعة الأردنية، هي علاقة أكثر إيجابية مما هو متوقع: حوالي 20% يعتقدون أنها لغة جميلة؛ وحوالي ربع العينة يريدون تعلمها؛ وأكثر من الثلث يعتبرون معرفتها دليلًا على الثقافة، لكن إضافة إلى ذلك حوالي 40% يكرهونها لأنها لغة اليهود، ومعرفتها من خلال الإسرائيليين تثير الشك. (SanÁÞ, n.d).

وكما هو الحال في لغات أخرى، المحصول اللغوي المستخدم في المفاوضات يخفي في جعبته معاني تفوق قيمتها المعجمية. فصراع المصطلحات ليس عالميًا فقط، لأن جذوره تغوص في الصراع الذي اندلع بين النبي محمد نفسه وبين اليهود في القرن السابع الميلادي (DajjÁnÐ, 2002: 126). على سبيل المثال وجهة «المخرب الانتحاري»

(٨٦) http://www.arableagueonline.org/las/picture_gallery/riyed29-3-2009.pdf.

ليست إلى الموت، وإنما هو «شهيد» يعيش إلى الأبد (DajjÁnÐ, 2002: 120-4) ولذلك فإن الاكتفاء بالتفسير اللفظي للرسائل يضمن فهما محدودًا لها أو حتى أخطاء سلبية وإيجابية. فهم هذه الفروق، دون أن تكون هناك حاجة إلى قبول المواقف السياسية والثقافية التي تقف ورائها، يمكن أن يتغلب على هذا المانع الجوهري ويتيح، وفقًا للنموذج أعلاه، فهم العقلانية في «إرهاب المنتحرين».

الفروق بين العربية كلغة عالية الاتصال واللغات منخفضة الاتصال، تؤدي في كثير من الأحيان إلى أن متحدثي العربية يتهمون بالاستخفاف بالحقيقة، وبالمبالغة أو بالتعبير المضلل للواقع. وهذا يمكن أن يعتبره متحدثو اللغات منخفضة الاتصال كذبًا مقصودًا، بل وحتى يصنف متحدثي هذه اللغة على أنهم كاذبون بطبيعتهم؟ وبالفعل، الإسلام يدين الكذب ويحظر استخدامه، اللهم إلا في بعض الحالات التي يكون فيها مسموحًا بل ومطلوبًا، مثل إنقاذ حياة مسلم، وتحقيق انتصار في الحرب وإقرار السلام بين المتشددين، وبخاصة بين الرجل وزوجته[٨٧]. هناك مانع لغوي آخر نابع من المعنى الشعوري المختلف لكلمات في لغات مختلفة: فبينما نجد أن المعنى المعرفي لأي كلمة ومقابلاتها في لغات أخرى، كما توصف في القواميس المختلفة، متشابهة كانت أو متطابقة، فإن المشاعر المرتبطة بتلك الكلمة في اللغات المختلفة تكون مختلفة.

(٨٧) يقول الغزالي (Ghazali, IhyaÞ, III 137, 11) إن الكذب الذي يؤدي إلى فائدة للمسلم (منفعة) هو كذب مباح. على سبيل المثال، في حالات النهب يجوز الكذب بشأن العثور على أموال في جيب المنهوب. وللمقارنة، في التلمود البابلي باب يفاموت ص 65، 72 يتطرق لمسألة الحقيقة أمام السلام: قال ربي إيلعا عن ربي إليعازر بر شمعون: يجوز للإنسان أن يغير في شأن السلام. ويقول موسى بن ميمون في مشنيه توراة أحكام التوبة، الفصل السابع: «لكن أحيانًا من أجل السلام سمح الحكماء بقول بعض الكذب، مثل صنع السلام بين إنسان وزميله، وامتداح العروس أمام العريس بأنها جميلة ولطيفة، وما شابه ذلك. في الشيعة ما زال مبدأ التقية الذي يسمح للمؤمن بالظهور كمنتم لدين سائد وليس شيعيًا يضطهد دينه في هذا المكان.

وتجاهل العنصر الشعوري، وبخاصة ذاك الذي في لغة تتباهى بحساسيتها مثل العربية، يؤدي (في أفضل الحالات) إلى عدم الفهم. فالتعامل الشعوري لمتحدث العربية مع مفاهيم معينة يمكن أن يكون مختلفًا عن تعامل محدثه. على سبيل المثال، حساسية الرجل العربي المرتبطة بلفظ «أخت» تكون مختلفة عن تلك لدى الرجل الأمريكي،لأنها تثير لديه مشاعر الشك والقلق والشرف والخطر والوضعية والذكورة والمسئولية إلخ. وفي هذه الحالة لا يفهم الأمريكي السلوكيات السلبية التي يمكن أن ينتهجها ردًا على استخدامه لهذه الكلمة (Alon, 2005)

مشكلة هامة مرتبطة بموضوع المفاوضات وهي اللغة التي تختارها الأطراف لإدارة المناقشات. في أغلب الاتصالات بين الإسرائيليين والعرب استخدمت اللغة الإنجليزية للحوار، لكونها معروفة للطرفين، ولتدخل أطراف أخرى في المفاوضات، ولأن نتائجها سوف تعرض وتنفذ في الساحة الدولية، وربما أيضًا لاعتبارات الكرامة القومية. في المحادثات بين إسرائيل ومصر تحدث الياقيم روبنشتاين بالعربية، لكن فقط في المحادثات غير الرسمية، واستحسن العرب ذلك (دان باتير في حديث شخصي). لكن حينما يستخدم المتفاوضون لغة ثالثة، عليهم أن يقوموا بعملية فكرية مزدوجة، وبهذا فإنهم يزيدون من خطورة أن تشوه رسائلهم. وأيضًا في هذه الحالات يبدو لي، على الرغم من أنه لا توجد لدي بحوث تؤكد ذلك، أن التطرق الأساسي للمتحدث يعكس رؤية لغته الأم وليس لغة الوسيط. وربما لذلك تطلب الشريعة إدارة المفاوضات مع الأغراب باللغة العربية، إلا إذا كان محدثك يثبت أنه لا يتمكن منها (ShaibÁnĐ, Syar, ii 479,5).

المانع اللغوي الأكثر بساطة هو عدم معرفة لغة المحاور. وهناك تعبير عربي قديم (هناك من يرجعونه إلى النبي محمد) يوصي بالتمكن من لغة العدو لأن هذا يمنح حماية منه. وهناك مستوى أعمق بكثير لهذه الظاهرة يرجع للغة المحاور أسس لغتك؛ على سبيل المثال، افترض أن لغته منخفضة الاتصال كلغتك. المستوى الثالث

من الموانع يرجع إلى عدم القدرة على التمييز بين الظروف التي تختلف فيها الرؤى الأساسية في لغة محاورك عن تلك التي في لغتك.

الزمن

يمكن أن يشكل اختلاف الرؤى الزمنية للمشاركين في تلك المفاوضات عائقًا أساسيًا جدًا لمجرد الدخول إليها وإدارتها. يعتبر الزمن في الإسلام منظومة قيمية يحارب فيها الخير الشر، بخلاف كونه إطارًا تقع فيه أحداث (Choudhury ,76 1992). في المفاوضات بين الرؤية القيمية والرؤية ذات الدور الفعال يوجد مجال واسع لعدم الفهم الجوهري، واستخلاص النتائج من أحداث الماضي من نتائج الطرف الثاني، بل وحتى عدم الملاءمة مع توقعات الطرف الثاني.

يصف كثيرون منظور الزمن الإسلامي بأنه «زمن حدث» وليس «زمن ساعة». وهذه رؤية يتم فيها تحديد الأحداث من خلال النشاطات وليس من خلال الساعة (انظر; Levine 1997: 77 ـ [٨٨] Choudhury 1992: 85) الزمن هو المسافة بين الأحداث (IÒfahÁnĐ, 1332 I, 141,7) ومن ناحية أخرى نجد أن الرؤية الغربية تشبه بصورة عامة الرؤية التي تحدد فيها الأحداث وفقًا للساعة وليس العكس (على سبيل المثال) حظيت هذه الرؤية مؤخرًا بصياغة صائبة في أفغانستان: «السويسريون يملكون كل ساعات العالم، ونحن نملك ـ كل زمن العالم».

هناك تقسيم آخر لنظرية الزمن يفرق بين الرؤية المتعددة التي تتيح لعدة أحداث أن تقع في وقت واحد (...) وتؤكد تدخل أشخاص واستكمال المهمة أكثر من

(٨٨) Bourdieu, 1963: 59: «There are not precise hours for meals; they are eaten whenever the preparation is complete and eating is they agree only to meet 'at the next market. "leisurely. The notion of an exact appointment is unknown

الارتباط بجداول زمنية مسبقة، وفي مقابل هذه الرؤية نجد الرؤية الأحادية التي تعمل من خلال جداول زمنية، وتفكيك لوحدات أصغر ودقيقة (Hall, 1976: 22).

في المفاوضات، حيث لكل طرف رؤية مختلفة عن تلك التي ذكرت أعلاه، يكون التعريف بسيطًا، مثل موعد اللقاء والتخطيط المشترك، والظهور كمهمة معقدة، لأن الفرد يمكن أن يتنازل عن عمل هام بسبب التزام مسبق بجدول أعمال، وآخر يمكن أن يدفع الأول إلى انتظاره في موعد معين، لأن الحدث الذي يقدره أكثر قد وقع في نفس الوقت.

في الثقافات الغربية ذات زمن الساعة، تعتبر الدقة قيمة. وعدم الدقة تصعب تنسيق الأعمال والخطوات المشتركة. مقابل ذلك، في ثقافات زمن الحدث، الارتباط بجدول أعمال ليس ضروريًا دائمًا (Bourdieu, 1963: 59) أو حتى محترمًا، بل يمكن أن يساء تفسيره. في حديث خاص مع مفكر فلسطيني وصف الدقة كأداة إمبريالية، واستعار مفهومًا من مجال الرياضيات وطبقه على العلاقات الإنسانية. وأيضًا يورد برنارد لويس اقتباس سينما عن Lewis, 2002: 130– 1 Consultations au Georges pays d 28–Duhamel Islam, 1947: 27، لا يوصي بالدقة فقط، خطرها في أنها تؤدي إلى إضاعة حياة الإنسان (الذي يتصرف بموجبها) وتجعله يتنازل عن حياته الحقيقية. هذه الرؤية توجد بدرجة معينة أيضًا في مستوى أكثر عمومية: في الاستطلاع الذي أجري عن الدقة، وجدت الأردن في المركز 19 من 31 دولة، وجاءت سوريا في المركز 27 –131 :Levine, 1997. ومن ناحية أخرى، حينما يكون المقصود تنفيذ وصايا، وبخاصة وصية الصلاة، فإن الدقة تكون هي الحد الأقصى انظر على سبيل المثال (Ibn TaimÐyah, SharÎ al-ʻUmdah, IV, 150).

أيضًا فإن علاقة الثقافات المختلفة بأجزاء الزمن مختلفة: ففي بعضها يتم التركيز على المستقبل، وفي أخرى على الماضي. الثقافة الإسلامية السنية متحدثة العربية تنتمي للمجموعة الثانية: توجه النظرة إلى الوراء، إلى عصر النبي محمد،

الذي يعد نموذجًا للإنسانية كلها، وزمن خلفائه الأربعة. ومن هنا تأتي أهمية النموذج السابقة والتاريخية في الثقافة الإسلامية (JÁbir, 1986, VIII, 19) وأيضًا يجب أن تعتمد القرارات السياسية الآن على سوابق تاريخية كهذه (Ghali, 1977: 221, 1) وتأثير الماضي على قرارات وأفعال الحاضر، يمثل به جيدًا في فقرة الشريعة التي أكدت مبادرة السادات للسلام مع إسرائيل؛ فقد اعتمد على سلام الحديبية، الذي وقعه النبي محمد مع أعدائه من قبيلة قريش عام 628 ميلادية. وعلى نفس الوتيرة، تعتبر كثير من الصراعات استمرارًا لأحداث تاريخية لم تغلق؛ على سبيل المثال، انتصار إسرائيل في حرب 67 اعتبر انتقامًا لهزيمة موقعة (حطين 148 :1972, Sivan) الحرب الإيرانية العراقية ـ استمرار لانتصار المسلمين على الفرس في القادسية (عام 636 ميلادية) وغير ذلك.

الرؤية الغربية، وبخاصة الأمريكية، موجهة أكثر إلى المستقبل، وكما عبر برنارد لويس، فهي تلغي الماضي بالتعبير الشائع: «دعك، هذا تاريخ». وفي المقابل، في الرؤية الإسلامية ينتمي المستقبل للإطار الإلهي، ويحظر على المؤمن أن يعبر عنه دون أن يضيف تعبيرًا تحفظيًا «إن شاء الله». هذا التحفظ يمكن أن يجعل الآخرين يشكون حينما يسد الأمن الطريق أمام اتخاذ أي قرارات، وليس الأمر كذلك في تنفيذه، فبينما نجد أن القانون الإسلامي بالفعل مثله مثل باقي الثقافات التي أعرفها (يتطلب تنفيذ الوعود والالتزام بالاتفاقات. ومن ينتهكون الاتفاق أو يكذبون، يدعون «مخادعين») (على سبيل المثال: ÀdÁb, 337 ومكانهم في الدرك الأسفل من النار. (GhazÁlÐ,, Muslim ÑaÎÐÎ, ÏmÁn ;196)[٨٩].

(٨٩) http: / /www.islambasics.com /view.php?bkID=999999&chapter=10: Islam Basics.com

وفقًا للمنظور الإسرائيلي الغربي يمكن أن يعتبر الاهتمام بالماضي والاعتماد عليه كسرقة الزمن عمدًا أو عرضًا لا أكثر ولا أقل ـ كحافز لمواقف سياسية آنية في أحداث ماضية غير ذات صلة وبهذا أيضًا إشارة إلى عدم حسن النية في المفاوضات. ومن ناحية أخرى، عدم احترام الآراء المعتمدة على الماضي، يمكن أن يفسر إما على أنه ممارسة ضغط من جانب الطرف الثاني ـ وبهذا يعتبر علامة على عدم الصدق في المفاوضات ـ أو كعلامة استخفاف بالمواقف والرؤى التي تعتمد على الماضي بصورة موضوعية.

كما هو معروف، في المفاوضات تقف احتمالات النجاح في علاقة مباشرة مع الفترة المتاحة للأطراف. في الإسلام يوعد المؤمن والأمة الإسلامية كلها بالانتصار في النهاية. صحيح أن الفترة الزمنية حتى هذا الانتصار ليست تفصيلية، لكن كما صاغ ذلك مفكر هام معاصر: في الصراع ينتصر الخير ولا قيمة للزمن. (RamaÃÁn, 1998: 55) يمكن أن يؤدي هذا الوعد ـ وفي حالات معينة مما يسمى «الإسلام الراديكالي» تؤدي بالفعل ـ إلى أسلوب غير متسق مع إدارة المفاوضات بل وحتى إلى رفض الدخول في مفاوضات. في الرؤية الغربية مدى الزمن أقصر بكثير ولذلك فهو يتطلب نتائج مختلفة. إضافة إلى ذلك، لا يمكن أن نستخلص من ذلك أن إضاعة الوقت هي سلوك محمود، العكس هو الصحيح، لأن مثل هذا السلوك مرتبط بالشيطان.

رؤية الزمن كعائق للإنجازات تؤدي بالضرورة إلى تفضيل السرعة. في اللغة العربية المصطلح المستخدم بصورة عامة للترجمة هو «سرعة» يشترك أيضًا مع «العجلة»، وهذا الذي يستخدم «البطء» يشترك أيضًا مع «التمعن». وبهذه المعاني المختلفة يبدو أن أبناء الثقافات المختلفة لا يختلفون، لكن يبدو أحيانًا أن المعنى الأول، «السرعة»و «البطء» يستخدمان، وفي هذه الحالة الثقافة الإسلامية تفضل

البطء[٩٠]. تشيع جدًا تعبيرات مثل «السرعة / العجلة من الشيطان، والبطء/ التأني من الله» ويقتبس أيضًا تعبير «التأني» الذي يؤدي في النهاية إلى الخسارة أفضل من العجلة التي تؤدي إلى الربح (Ibn Ýabd Rabbihi, ÝIqd, 33) والمانع الذي يمكن أن ينجم نتيجة لهذه الفروق في المناظير هو الشك في المفاوض المسلم أنه يجر ساقيه كتكتيك.

القيم

يمكن أن تشكل منظومات القيم المختلفة عائقًا أساسيًا في إدارة المفاوضات، وذلك لعدة أسباب: يتجلى الأول في ترتيب الأولوية والسعر المتبادل: هل يمكن دفع قيمة هامشية في مقابل تنفيذ قيمة عليا، وإذا كان الأمر كذلك ـ فإلى أي مدى؟ السبب الثاني للمانع على أساس قيمي هو مصدر منظومات القيم المعنية ودرجة حرية الفرد في العمل دون تنسيق كامل معها. وسأناقش فيما يلي الاعتقاد في العدل والكرامة كقيم أساسية إسلامية، وآثارها كموانع ممكنة في المفاوضات.

المسلم هو عبد الله، ودرجة إيمانه به تحدد وضعيته في العالم، وهو مطالب بوضع هذا الإيمان على رأس سلم قيمه، ولكي ينفذه عليه أن يكون مستعدًا لدفع أي قيمة أخرى، بما في ذلك حياة الإنسان[٩١]. يضاف إلى ذلك المطلق في الإيمان وإيجاد مانع صعب أمام المفاوض مع ممثلي مجتمع لا يعد الإيمان فيه قيمة عليا وموقفه ليس مطلقًا في التعريف: يمكن أن تصطدم المناقشات الموضوعية بطريق مسدود على هذه الخلفية.

(٩٠) بصفة خاصة في خمسة موضوعات: إطعام (الجائع)، وتغسيل الميت، والزواج، وتطبيق الشريعة، والندم على الخطأ (GhazÁlÐ, IÎyÁÞ, 372 .)

(٩١) انظر التلمود البابلي، السنهدرين ص74/ 1، بلا قيد أو شرط.

وأيضًا فإن الرؤى المختلفة للعدل كقيمة يمكن أن تفشل المفاوضات بسبب الخلافات المحتملة في الرأي حول تفصيلات الاتفاق، لكن أيضًا على مبدأ العدل الذي يقوده.

يعتبر العدل أحد القيم الأساسية في الإسلام (Rosen, 2002: 68) بل وحتى أحد محدداته (Khomeini, Islam and Revolution, 28) وأحد تعريفاته الشائعة هو «إعطاء كل ذي حق حقه» و«وضع الأمور في نصابها» (al-BannÁ2001: 83). ومن الواضح أن نظرية العدل في الإسلام مطلقة، بينما نجد أن النظرة في الإسرائيلية ـ الغربية تتيح العدل النسبي. هذا هو أحد أسباب الرفض الإسرائيلي للتطرق إلى العدل أثناء المفاوضات (حديث شخصي مع دافيد شيطنر 6.1.09) ويمكن أن يفسر هذا الرفض في نظر المسلمين متحدثي العربية على أنه اعتراف بعدم عدالة الموقف الإسرائيلي ـ بينما تبدو هذه الرؤية الإسلامية في نظر الإسرائيليين مثالية وغير عملية، وقد تخفي عن عمد النية في إعاقة المفاوضات الموضوعية.

القيمة الشخصية والجمعية والسياسية الهامة، هي قيمة الكرامة وتقدير الذات، كما عبر عن ذلك أكثر من مرة في تاريخ العلاقات بين إسرائيل وجيرانها، وتعتمد أهميتها على الطبيعة الجمعية للمجتمع الإسلامي، وعلى علنية إجراءات أعضائه وعلى الأهمية التي يعلقها على الحفاظ على الإطار الجمعي خارج هذا الخلاف أو ذاك. وعلى الرغم من أن الأمر يرجع بصورة خاصة إلى صراعات داخلية، إلا أنه ينطبق أيضًا على الصراعات الخارجية، حينما تكون الجماعة الموصوفة على سبيل المثال هي الأمة العربية، والصراع المعني هو صراع دولي، مثل الصراع الإسرائيلي العربي. هكذا على سبيل المثال أكد حافظ الأسد أكثر من مرة أن أي اتفاق سلام مع إسرائيل يجب أن يحفظ كرامة سوريا (انظر على سبيل المثال رابينوفيتس, 1998 : 106) واتهم حسن عصفور إسرائيل «بقتل الكرامة» الفلسطينية (شير 2001 : 115)، ويميل كثير من الإسرائيليين إلى الاستخفاف بأهمية الكرامة كقيمة في المجتمع العربي،

ويشكون في المطالبة بها باعتبار أنها لا تستخدم إلا كتكتيك في الصراع[٩٢]، أوعدم الاهتمام بمضمونها وتعبيراتها في المجتمع العربي. كما أن مسألة الكرامة يمكن أن تستخدم، بسوء نية، كوسيلة في المفاوضات. إضافة إلى ذلك، خطورة المساس الحقيقي بكرامة المحدث تضر بهويته، التي يمكن بالطبع أن تنهي المفاوضات. هذا الضرر الذي ينشر تفوق الجانب الذي أحدث الضرر، يمكن أن يفسر على أنه إملاء لنتائج المفاوضات ومساس أيضًا بالمرسل نفسه، الذي يبدو كإنسان غير متحضر وربما غير جدير بأن يكون طرفًا في المفاوضات.

الوسائل

يمكن أن تظهر أيضًا الموانع الثقافية من الوسائل التي تبدو مشروعة في نظر ثقافة ما وغير مشروعة في نظر ثقافة أخرى، مثل الاستخدامات المختلفة لنفس الوسائل. في تاريخ العلاقات الدبلوماسية بين إسرائيل والدول العربية فضلت إسرائيل المحادثات المباشرة، بينما فضل العرب وساطة طرف ثالث (مثل Ghali, 1997: 292) يمكن تفسير هذا التفضيل العربي ثقافيًا، لأن الأطراف تحظى من خلال طرف ثالث بقدر من الحفاظ على الكرامة، واحتمالات التغلب على الأزمات يكون أكبر مما هو بدونها. ومن ناحية أخرى، هذا التفضيل العربي يمكن أن يعتبر تعبيرًا عن العداء والامتناع عن أي اتصال مباشر، كما دأب السوريون بصورة تقليدية في محادثاتهم مع إسرائيل، على سبيل المثال حينما أصروا على أن يوقع جنرال مصري على اتفاق فصل القوات بينهم وبين إسرائيل بعد حرب أكتوبر (رابينوفيتس, 1998 : 46). يمكن أن تشكل هذه الفروق في الرؤى مانعًا في المفاوضات. بسبب التفسير المتشابه المنسوب لسلوكيات عكسية من الطرفين، فإن الرؤية التي تذيع الثقة للإسرائيليين تعتبر في نظر العرب غير محل للثقة، والعكس.

(٩٢) على سبيل المثال ياريف بن اليعازر 944/ ART1/ 1/ online/ il.co.nrg.www//:http/ 842.NRG/ 2009, 12, 07 .html.

يوجد سياق ثقافي واضح في طريقة عرض الموضوعات للنقاش في المفاوضات. فضل الجانب العربي الرؤية الاستنتاجية في كثير من الحالات في إدارة عملية التفاوض ـ من العام إلى الخاص. أي إعادة بناء إطار معتمد وبعده فقط مناقشة الموضوعات المطروحة. هكذا على سبيل المثال، نظرية الأراضي مقابل السلام ـ وإعلان إسرائيلي عن موافقتها على الانسحاب الشامل حتى قبل مناقشة جوهر السلام ومكوناته. فضلت إسرائيل بصورة عامة الرؤية الاستقرائية أي من الخاص إلى العام ومناقشة مكونات الاتفاق **أولا** : هذه الفروق في الرؤى برزت في عملية السلام مع مصر وكذلك أيضًا في عملية أوسلو (1978 : 402; 21 :1997 ,Ghali SÁdÁt فونداق, 2001 : 105.).

وأيضًا سلك حافظ الأسد رؤية مشابهة طلبت موافقة أولًا على المبادئ وبعدها الدخول في التفاصيل. ويعرض (رابينوفيتس 1998 : 98) الصعوبة المترتبة على هذا الفرق، على النحو التالي الانسحاب هو عملية مكونة من مشهد واحد لا يدع مجالًا للمفاوضات، و«السلام» هو مجرد بداية طريق المفاوضات المساومة. وفي التصريح الإسرائيلي ـ تتنازل إسرائيل عن كل أوراقها.

هناك خشية أخرى من أن تؤدي الموافقة المبدئية إلى إغلاق الطريق أمام مفاوضات حقيقية، ومن ناحية أخرى ـ فإن الاهتمام المسبق بالتفاصيل يعد علامة على انعدام الرغبة في حل المشاكل المطروحة ومحاولة ترك طرق إخفاق كثيرة قدر الإمكان في يد الجانب الذي يفضل المناقشة من الخاص إلى العام. وعلى الرغم من الصعوبات والفروق، فإن إسرائيل وافقت أحيانًا على هذه الرؤية، كما فعل بن عمي، على حد قوله، في محادثاته مع أبو علاء (بن عمي 2004:29)، وأحيانًا طلب الجانب العربي تناول التفاصيل (Fahmi, 1983: 202).

في كثير من الأحيان يفضل المفاوض العربي عرض موقفه بأسلوب قاطع لا يدع مجالًا لأي احتمال بأنه غير صادق تمامًا ـ وهي رؤية يرجعها البحث إلى

الطبيعة الهيراركية التقليدية للمجتمع العربي مثل مطلقات الرسالة الدينية في القرآن (Hatem, 1997: 52; 169) ويمكن أن تعتبر هذه الرؤية في نظر الأغراب إلغاء لاحتمال أن يبدو الموضوع محل التفاوض إملاء أو حتى تضليلًا. ويمكن أن يفسر الاتجاه العكسي، الذي يعترف بإمكانية الخطأ أو جزئية الزعم، على أنه اعتراف بالعيوب في الموقف المعروض.

الخلاصة

على الرغم من أن هذا البحث لا يدعي أن فشل عملية السلام يرجع إلى الفروق الثقافية فقط، إلا أنه يشير بالتأكيد إلى أن الفروق بين الأطراف المتداخلة في عمليات تسوية الخلافات الدولية هي عوامل هامة جديرة بالتناول البحثي والعملي، ويرجع ذلك إلى الأسباب التالية:

- كون الثقافة إطارًا اجتماعيًا عامًا جدًا يملي إلى حد كبير رؤى وسلوكيات الفرد في المفاوضات.
- كون الثقافة مؤسسة غامضة وضبابية إلى حد ما، يصعب التعامل الواعي معها.
- الآثار الصعبة التي يمكن أن تنجم عن تجاهل الموضوع الثقافي في المفاوضات، أو عدم الاعتداد الكافي بها، سواء عن عمد أو غير عمد. يبدو أن أصعب مشكلة متعلقة بفروق الثقافات تمس تعامل الأطراف مع مصداقية الطرف الثاني في أوضاع الرؤى الثقافية المختلفة في موضوعات مثل جوهر السلام، تنفيذ الاتفاقات واحترام الاتفاقات والالتزامات.

وفي ضوء ذلك، يقترح هذا البحث على الأطراف المعنية التوصل إلى اتفاق سلام يعترف بأهمية الثقافة في المفاوضات، وبسماتها ومكوناتها المختلفة، ويعدون أنفسهم مسبقًا لدراسة ثقافة الآخر في سياقات مختلفة:

obeikandl.com

- **الهوية:** يجب الاعتراف بالسمات الإيجابية التي ينسبها الآخر لنفسه والتعامل معها في المفاوضات من أجل إتاحة جو مناسب، وتفسير دقيق للتعبيرات والسلوكيات من جانب المحدث والتدقيق في بعث الرسائل للغير. إضافة إلى ذلك، يجب أيضًا الاعتراف بوجهات نظر الطرف الثاني محدثه في المفاوضات.
- **اللغة:** لا بد من أن يوضع في الاعتبار أن الرؤية المختلفة لدور اللغة يمكن أن تطيل مدة المناقشات، بسبب الثقل البالغ للغة والكلمات في الثقافة الإسلامية متحدثة العربية، وبخاصة بسبب التناقض في الثقافة واللغة، لا بد من إتاحة الفرصة لتفسير مختلف عن التفسير اللفظي. اللغة العربية هي لغة عالية الاتصال، ويمكن أن يساء فيها فهم الرسالة؛ لذا لا بد من الاستعانة بمتحدثي العربية الذين يعرفون الثقافة وتوارد الخواطر والسياقات الشعورية للكلمات المختلفة.
- **الزمن:** لا بد أن نضع في الاعتبار أن تناول الزمن في الإسلام لمتحدثي العربية يمكن أن يكون مختلفًا عنه عندك. خطط استمرار المفاوضات لفترة أطول مما يبدو ضروريًا من وجهة نظرك.
- **القيم:** لا بد من محاولة تجنب الدخول في مناقشات حول العدل دون الالتزام مسبقًا بسلوك ما، على المفاوضين مع المسلمين متحدثي العربية أن يكونوا مستعدين لقبول أهمية احترام المحدث ودراسة تعبيراته.
- **الجدال:** لا بد من اعتبار أي إعراب عن رأي بمثابة إجراء في المفاوضات، حتى وإن عرض بصورة قاطعة ورافضة أي احتمال للتغيير. لا بد من التطلع إلى موافقة على نظام المناقشات من العام إلى الخاص وليس العكس.